

## قضاء القاضي عياض - دراسة تاريخية -

د. أحمد قاسم كسار\*

عياض -رحمه الله- بالبحث والدراسة، لتتجلى لنا الصورة الشريفة لهذه المهنة التي لازمتها، وبالتالي فنحن أمام موازنة كبيرة وثقيلة في الوقت نفسه في التعامل مع الصفة والموصوف بها، لأن كل واحد منهما تكمل الآخر، وتضفي على الموضوع هيبة ووقاراً.

كما أن الباحث يجد نفسه أمام شخصية قضائية فذة، أدى حقها بما يرضي الله تعالى، ولم يكن حريصاً عليها، وإنما كان التلازم بينه وبينها لرعاية شؤون الناس وتصريف حوائجهم. والبحث يعكس صورة عن نزاهة القضاء في مرحلة معينة من تاريخنا الإسلامي، وفي الوقت نفسه يوجه رسالة غير مباشرة إلى قضاة اليوم للإفادة من هذا التراث الثري الذي تخلد بالذكر الحسن، والسيرة الطيبة، وهذا عمر ثانٍ للقاضي عياض وأمثاله، وعمل صالح يجرى خيره لهم وهم في قبورهم بإذن الله.

### المطلب الأول: التعريف بعياض وبيان صفاته

#### أولاً: اسمه وكنيته ولقبه

هو: عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض بن محمد بن عبد الله بن موسى بن عياض، وهذا النسب نقله ابنه محمد بن القاضي عياض ت575 هـ عن أبيه نفسه<sup>1</sup>.

ومن لوازم التعريف بالاسم الكنية واللقب، فأما الكنية فلم تعرف للقاضي عياض إلا كنية واحدة وهي: «أبو الفضل»<sup>2</sup>.

لازمت صفة القضاء عياضاً، وتركت مع اسمه، حتى صارت معه كالجزء الواحد، وما ذلك إلا لأسباب عديدة، قد نستطيع تحليل بعضها، وتخفى علينا الأسباب الأخرى، ومما يمكن لنا أن نستشفه من هذا التلازم بين الاسم والصفة هو طول المدة، فقد تقلد عياض القضاء في مراحل متتابعة من حياته كما سنرى في بحثنا هذا، أو لعل هذه الصفة تجتمع مع اسمه في حريضة الضاد والياء، وفي ذلك من التجانس البديعي ما لا يخفى على أحد، ولربما كانت صفة القضاء وهو السلطة المستقلة في نظام الحكم الإسلامي لها مكانتها الرفيعة التي لا تعلوها مكانة أخرى، ولذلك تصدرت صفات القاضي عياض ولازمته.

وأي من هذه أو تلك فنحن أمام عَلم من أعلام الأمة له مكانته، وقديماً قالوا: «لولا عياض لما عرف المغرب»، وقد ارتبط هذا الاسم بصفة القضاء وتقدمت على الاسم من باب التعريف، فرأيت من المناسب جداً أفراد بحث لقضاء القاضي عياض بدراسة تاريخية نتبع فيها هذا الوصف الجليل.

ومن متطلبات البحث التعريف بصاحب الشأن فلذلك كان هذا البحث في ثلاثة مطالب: أحدها للتعريف بعياض وبيان صفاته، والثاني التعريف بعصر عياض وعلاقته بالقضاء، والثالث: لبيان المناصب القضائية التي تقلدها عياض، والمطلب الأخير قراءة في السمات العامة لقضاء القاضي عياض.

ويهدف البحث إلى تخصيص ظاهرة القضاء في حياة

وأما لقبه فهو القاضي الذي صار ملازماً لاسمه لا ينفك عنه<sup>3</sup>، هذا وقد حُلَّتْه المراجع والمصادر بجملة أخرى من الألقاب النبيلة منها: شيخ الإسلام، العلامة، الحافظ، الأوحد، الإمام، المحدث، الفقيه، المجتهد، الأصولي، المفسر، المؤرخ، اللغوي، الأديب، الشاعر، المحقق، المصنف المجيد، الخطيب الفصيح، العالم، العامل، الزاهد، الفاضل، الورع، الرباني، المجاهد، علامة المغرب، واحد آحاد الزمان... ولكل لقب

من هذه الألقاب نصيبه الحقيقي الذي ينطبق على جانب من جوانب هذه الشخصية الفذة المتميزة بين العلماء الأعلام<sup>4</sup>.

### ثانياً: نسبته

للقاضي عياض نسبتان: إحداهما نسبية، والأخرى سكنية، فهو يحسب النسب، سبتي المولد والسكن، فأما نسبته إلى يحصب، فهو نسبة إلى يحصب بن مالك<sup>5</sup>، ويحصب: أبو قبيلة من حمير المعروفة من عرب اليمن، وكثير منهم استوطنوا الأندلس بعد الفتح، ونسبت إليهم قلعة هناك عرفت بقلعة يحصب<sup>6</sup>.

وأما نسبته إلى سبته<sup>7</sup>: فهي المولد والسكن<sup>8</sup>، فقد ولد بها القاضي عياض، وذلك لأن أجداده كانوا قديماً بالأندلس في مدينة بسطة<sup>9</sup> ثم انتقلوا منها إلى مدينة فاس<sup>10</sup>، وكان لهم استقرار بالقيروان<sup>11</sup>.

وبسبب رحيل عائلة القاضي عياض وتقلعهم بين عدد من مدن المغرب نسب القاضي عياض إلى المغرب فقالوا: عياض... المغربي<sup>12</sup>.

### ثالثاً: ولادته

أرَّخ القاضي عياض ولادته بخط يده، أنه ولد في منتصف شهر شعبان سنة ست وسبعين وأربعمئة للهجرة، كما نقل ذلك ابن بشكوال في الصلة<sup>13</sup>، وهذا التاريخ يوافق سنة 1083 للميلاد<sup>14</sup>.

ولد القاضي عياض في مدينة سبته التي لها موقعها الجغرافي المتميز، فهي نقطة وصل بين ثلاثة عوالم: الأندلس من الشمال، والمغرب وما وراءه من الصحراء، وأفريقيا من الجنوب وبقية العالم الإسلامي الواقع شرق المغرب الأقصى من جهة المشرق<sup>15</sup>، فكانت سبته ملتقى ثقافات متعددة

ومتنوعة وكانت مركزاً ثقافياً له أهميته وميزاته وخصائصه<sup>16</sup>.

### رابعاً: نشأته

نشأ القاضي عياض في سبته - مسقط رأسه - نشأة طيبة مباركة وصفها ابنه محمد قائلاً: «نشأ أبي على عفة وصيانة، مرضي الخلال، محمود الأقوال والأفعال، موصوفاً بالنبل والفهم والحدق...»<sup>17</sup>.

### خامساً: صفاته

أحسب أن القاضي عياضاً على خير كثير، ولا أُرَكِّي على الله أحداً، وإن صلاحه وتقواه لله رب العالمين من أسباب توفيق الله له، واشتহারه من بين أعلام علماء الأمة الإسلامية على مر القرون، ويعد القاضي عياض من كبار العلماء الربانيين، ومن أهل المقامات في الدين، قيَّضه الله لخدمة العلم، وشرح صدره للكتابة والدروس والجمع والشرح والاستنباط والاقتباس، وطلوع لسانه بالخطابة، وفصل القضايا، وربط على قلبه في مجابهة التحديات والفتن التي شهدها عصره، وأناط به حقوق المستضعفين فشغله بالقضاء وهو أعظم كلفة ربانية؛ لأن فيه استيفاء الحق للمظلوم من الظالمين، ثم أكرمه ببلن الجانب ووطأة الكنف وطيب نفسه للبذل والسخاء، فأعطى بسيرته المثلى الدليل القاطع على أنه من الوارثين لمهام النبوة وتبليغ الرسالة<sup>18</sup>.

وقد جسَّد لنا القاضي عياض أخلاق العلماء وأدبهم الرفيع وقد نقل لنا الفتح بن خاقان ت. 582 هـ في ترجمته للقاضي عياض ما نصه: «جاء على قدر، وسبق إلى نيل المعالي وابتدر، واستيقظ لها والناس نيام، وورد ماءها وهم صيام، وتلا من المعارف ما أشكل، وأقدم على ما أحجم عنه سواء ونكل، فتجلت به للعلوم نحور، وتجلت له منها حور، كأنهن الياقوت والمرجان، لم يطمئنهن إنس قبلهم ولا جان، وقد أنحفته الأصالة رداءها، وسقته أنداءها، وألقت إليه الرئاسة أقاليدها، وملكته طريفها وتليدها، فبذَّ على فتائه الكهول سكوناً وحلماً، وسبقهم معرفة وعلماً، وازدرت محاسنه بالبدر اللامح، وسرت فضائله سري الرياح، فتشوقت لعلاه الأقطار، ووقفت تحكي نداء الأمطار... وهو على اعتنائه بعلوم الشريعة، واختصاصه بهذه الرتبة الرفيعة، يعنى بإقامة أود الأدب، وينسل إليه أربابه من كل حذب»<sup>19</sup>.

بهذه الخلال جمع عياض مواصفات العالم الذي يجب

مجتمعه، ويسعى في خيره وإصلاحه، إذ تحلى بخلال الحلم والتواضع وخفض الجناح والرحمة بالناس ومواساتهم بلفظه العذب وماله الكثير، مشيعاً بينهم معاني التراحم والتواد والتكافل قولاً وعملاً، فكانت النتيجة أن أحبه الجميع، ولا شك أن كثيراً منهم قد تطبعوا بتلك الأخلاق الكريمة والشيم النبيلة، ونظراً لهذه الفضائل والشيم التصقت بعباس كنية أبي الفضل دون سواها على الرغم من أنه لم يكن له ولد بذلك الاسم، وإنما كُتِبَ بذلك نسبة لكثرة فضائله<sup>20</sup>.

وعلى الرغم مما عرف به القاضي عياض من الصلاح لنفسه فقد كان مصلحاً لغيره، فكان جميع أمره دعوة للناس إلى الخير يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، يسارع في الخيرات، فكان درسه في العلم ميداناً

رحباً لرسم القدوة الصالحة وتوفير العلم وطلبه وحبّه، وكان مجلس قضائه ديواناً لحل النزاعات وإشاعة المودة والصفاء والتسامح بين الناس ومن خلال مسؤولياته التي تقلدها وسّع جامع سبته، وكان أول المنفقين عليه قبل أن يدعو الناس، إلى الصدقة وبذل الأموال، وكان سباقاً لفعل الخير والسعي إليه، والمساهمة الفعالة في وجوه البر ومساعدة الأيتام والأرامل والمساكين والفقراء، فشخصيته تمثلت بكونه

عالمًا مخلصًا، ومصلحًا ناجحًا، وقاضياً نزيهاً، ومعلماً مريباً، وإنساناً تألفت فيه معاني الإنسانية في حياته كلها<sup>21</sup>.

#### سادساً: الجانب الاجتماعي في حياته

لقد اتصف القاضي عياض بأخلاق كريمة، ووصف بسجايا حميدة، فوصلت إلينا عنه صور مضيئة، رسمها بتعامله، واكتسبها من ميراث نبيّنا محمد ﷺ، ونشأ عليها من جيلة آبائه، فكان حسن الصيت، طيب الذكر، محمود الصفات. فقد وصفه ابنه محمد بقوله: «كان أبي على عفة وصيانة، مرضي الحال، محمود الأقوال والأفعال، موصوفاً بالنبيل والفهم والحدق... حسن المجلس، كثير الحكاية والخبر، ممتع المحضر، عذب الكلام، مليح النادرة، صبوراً حليماً، جميل العشرة، كثير الصدقة، دؤوباً على العمل، يكره الإطراء والإفراط في التصنع، لا يستسهل تكليف الناس

والتحامل عليهم، منصفاً من نفسه لأهل العلم، محباً لطلبة العلم، مبادراً لقضاء الحوائج، صغير النفس، غير متكبر، جواداً سمحاً من أجود أهل زمانه... ليثياً في غير ضعف، لا تأخذه في الله لومة لائم، كان يأخذ أموره بالملاطفة والسياسة ما استطاع وألا تقوى، وكان يلاطف الأمراء فإن امتنعوا عن الحق تقوى عليهم... وكان غير هيوب بهم، محبباً في قلوب العامة والخاصة، وكان جميل الوجه لطيف الرائحة، نظيف الملبس، باهي المركب»<sup>22</sup>.

### المتأمل في أخبار عياض يجد أخلاقه موزعة في مجالاتها، فكان خلقه في القضاء العدل، وخلقه مع نفسه التواضع، وخلقته مع الناس العشرة الطيبة...

يقول الأستاذ أحمد صقر في مقدمة تحقيقه لكتاب الإلماع: «إن تلك الأوصاف الجميلة التي وصف بها ابن عياض أباه، قد تكون لعاطفة البنوة دخل كبير في إسباغها عليه، ولكن الذين خالطوا عياضاً وخبروا أحواله قد وصفوه بمثلها وأحسن منها»<sup>23</sup>.

والتأمل في أخبار عياض يجد أخلاقه موزعة في مجالاتها، فكان خلقه في القضاء العدل، وخلقته مع نفسه التواضع، وخلقته مع الناس العشرة الطيبة... الخ فهو - رحمه الله - لما أقام الحد على صديقه الفتح بن خاقان ت. 528 هـ في شرب الخمر، بعث له بهدية فيها دنانير وفيها من تطيبب خاطر وصفاء الود ما لا يفعله غيره<sup>24</sup>.

ومع كل المناصب التي تقلدها لم يدعه ذلك إلى التكبر والتعالي على الناس وإنما ازداد بعلمه وقضائه ووجاهته تواضعاً، وهذه شهادة احتفظ بها التاريخ للقاضي عياض: «حاز القاضي عياض من الرفق والرئاسة في بلده ما لم يصل إليه أحد قط من أهل بلده، فما زاده ذلك إلا تواضعاً وخشية لله»<sup>25</sup>.

#### سابعاً: وفاته

اتفق المؤرخون والمترجمون للقاضي عياض على سنة وفاته، واختلفوا في يومها وشهرها ومكانها، فتوفي - رحمه الله - في عام أربع وأربعين وخمسمئة هجرية<sup>26</sup>، وهذا التاريخ يوافق عام 1149 ميلادية<sup>27</sup>، وله ثمان وستون سنة<sup>28</sup>. وكان ذلك في يوم الجمعة السابع من جمادى الآخرة<sup>29</sup>، الموافق: 13 أكتوبر تشرين الأول<sup>30</sup>، وقال ابن خلكان ت. 681 هـ في أحد قوليه أنه توفي في شهر رمضان من العام المذكور<sup>31</sup>.



ومات ودفن بـ مراكش<sup>32</sup>، كما هو معروف لمؤرخي المغرب وغيرهم كافة<sup>33</sup>، وعلى رأسهم محمد بن القاضي عياض الذي قطع بوفاة أبيه بمراكش ودفنه بها<sup>34</sup>، وأقبر ﷺ بباب إيلاف داخل المدينة - داخل السور<sup>35</sup>.

## المطلب الثاني: التعريف بعصر القاضي عياض وعلاقته بالقضاء

لهذا العصر أثر كبير في حياة عياض العامة، وكذلك كان لعياض أثر كبير في عصره، وهو أمر يجعل الباحث في حيرة من أمره أمام تفاضل الفضل وتبيان بين الرجل وعصره.

مع بدء القرن الخامس الهجري في بلاد المغرب وعلى أثر نهاية سقوط الدولة الأموية في الأندلس خرجت البلاد مفككة الأوصال، تتقاسمها القوى والقبائل، فعانى المغرب صراعاً سياسياً وقبلياً يؤججه الخلاف المذهبي والمطامع الخارجية حتى قامت الدولة المرابطية في الصحراء المغربية على يد الفقيه عبد الله بن ياسين الجزولي ت. 451 هـ<sup>36</sup>.

دامت هذه الدولة في المدة: 445 هـ - 541 هـ<sup>37</sup> فوحدت بلاد المغرب والأندلس وتبنت عقيدة أهل السنة والجماعة في الأصول، ومذهب الإمام مالك بن أنس ﷺ في الفروع<sup>38</sup>.

وقد اعتمدت هذه الدولة على العلماء وسخرتهم لإمكانات الدولة المرابطية في إقامة النظام الإداري والقضائي والتدريس فكانوا خير عون لها في توحيد المغرب مذهبياً وصيانتها داخلياً، وقد أفاد العلماء من هذا الاهتمام بالتوجه إلى الدولة بالنصح تارة، والانتقاد الصريح تارة أخرى، فكانوا مراقبين لأعمال الساسة على وفق ميدان عقدي وفقهي، فكان من أبرزهم القاضي عياض الذي وافقت حياته الشطر الأكبر من هذه الدولة، وشارك في مجالاتها التعليمية والقضائية والدينية<sup>39</sup>. وفي العهود الأخيرة لهذه الدولة ظهر الظلم فأضعفها حتى أن القاضي عياضاً أنكر عليهم كثيراً من الأعمال، وصدهم عن الإثم والباطل فكان ذلك سبباً لفصله عن القضاء<sup>40</sup>.

فانقرضت هذه الدولة بعد تأسيس دولة الموحدين وقيامها بين عامي: 515 هـ - 668 هـ على يد ابن تومرت<sup>41</sup> الملقب بالمهدي ت. 524 هـ الذي بدأ دعوته عن طريق تغيير المنكر حتى صار له الأتباع الكثيرون فبايعوه سنة 515 هـ فنظم أتباعه وقسمهم ووزعهم وأعلن الجهاد ضد دولة المرابطين إلى أن توفي، وقد استطاع خلفاؤه من بعده السيطرة الكاملة على بلاد المغرب والأندلس<sup>42</sup>.

وقد شارك القاضي عياض في هذه المرحلة بالمفاوضات

والثورات ثم المقاومة والجهاد<sup>43</sup> ولما وصلت جيوش الموحدين إلى سبتة سنة 534 هـ تولى القاضي عياض قيادة بلدته فصد الموحدين عنها بقيادة عبد المؤمن بن علي ت. 558 هـ<sup>44</sup>، وفي هذا يقول ابن خلدون ت. 808 هـ: « واستمر عبد المؤمن على حاله فنازل سبتة، وامتعت عليه، وتولى دفاعه عنها القاضي عياض الشهير الذكر، وكان رئيسها يومئذ بدينه وأبوته ومنصبه... »<sup>45</sup>.

واستمر الحال إلى أن استسلمت سبتة للموحدين حقناً للدماء، بعد أن استولى الموحدون على مدن المغرب كله، وفي سنة 542 هـ ثار أهل سبتة على ولاة الموحدين بقيادة القاضي عياض فقتلوا عامل الموحدين على سبتة، فبدأ الموحدون بحملة على المنتفضين عليهم وعلى رأسهم القاضي عياض فنفاه الموحدون إلى قرية نائية بحجة تولى قضائها وانتهى الأمر بموته قال ابن خلدون: «... وسخطته الدولة آخر الأيام حتى مات مغرباً عن سبتة »<sup>46</sup>.

وأما ما ذكره محمد بن القاضي عياض عن أبيه بأنه: « بادر بالمسابقة إلى الدخول في نظام الموحدين والاعتصام بحبلهم المتين »<sup>47</sup>، فلا يتفق هذا الخبر مع ما اجتمعت عليه بقية المراجع والمصادر والسبب في ذلك أن ما ذكره محمد بن عياض كان قد كتبه في عهد الموحدين، ولعله خشي بطشهم فلم يصرح بحقيقة الأمر<sup>48</sup>.

## المطلب الثالث: المناصب القضائية لعياض

### أولاً: قضاء سبتة

ولّى عياض القضاء في سبتة سنة خمس عشرة وخمسمئة للهجرة، وقد باشر القاضي عياض مهامه، وأقام الحدود على اختلاف أنواعها<sup>49</sup>.

وكان مثلاً للقاضي العملي، فقد اتجه فكره لتوسعة مسجد المدينة، فبنى الزيادة الغربية التي كمل بها بناء مسجد سبتة، كما بنى في جبل المنيا قرب سبتة رباطاً مشهوراً، إلى غير ذلك من الأعمال المحمودة<sup>50</sup>.

وكانت مدة قضائه بسبتة ستة عشر عاماً، بعد فيها صيته وحسن ذكره، فنقل إلى قضاء غرناطة مترقياً<sup>51</sup>.

### ثانياً: قضاء غرناطة

وصل الأمر بالقاضي عياض لتولي القضاء في غرناطة في غرة شهر صفر عام واحد وثلاثين وخمسمئة<sup>52</sup>، وقد قام أهل غرناطة باستقباله واستشرفوا له، وقد وصفت مراسيم ذلك الاستقبال بقولهم: « لما قدم علينا القاضي عياض غرناطة،

خرج الناس للقاءه، وبرزوا تبرزاً فما رأيت لأمير مؤمر مثله، وحرزنا أعيان البلد الذين خرجوا إليه ركباً فتيقوا على مثتي راكب، ومن سواد العامة ما لا يحصى كثرة، فخرجنا في جملة من خرج فلقينا شخصاً بادي السيادة، مبنياً عن اكتساب المعالي والإفادة»<sup>53</sup>.

وبعد أن تسلم القاضي عياض خطة القضاء وسار فيه سيرة الذي عُرف به، فَرَدَ الحقوق إلى أصحابها، وأقام الحدود بغير مهادنة ولا مجاملة، ووقف بوجه أمير غرناطة وحاشيته فصدّهم عن المظالم حتى ضاقوا به ذرعاً فجنّدوا أنفسهم لصرفه عن القضاء حتى أثمرت جهودهم فصرف القاضي عياض عن قضاء غرناطة في رمضان عام اثنين وثلاثين وخمسمئة بعد أن قضى بها حوالي عامين<sup>54</sup>، وبعدها رجع إلى بلده سبتة، واستقر بها يدرس ويستشار، ويقصده طلاب العلم نحواً من ست سنوات<sup>55</sup>.

### ثالثاً: قضاء سبتة مرة أخرى

في أواخر عام تسعة وثلاثين وخمسمئة للهجرة قدّم إبراهيم ابن تاشفين<sup>56</sup> القاضي عياض على قضاء سبتة، فسار القاضي سيره المعهود المحمود الذي عُرف به في غرناطة وقبلها بسبتة<sup>57</sup>.

وأقام القاضي في قضاء سبتة حتى قيام دولة الموحدين وغزوهم سبتة، فكان موقفه معارضاً لهذا الحكم فانهى به إلى تقريبه عن سبتة ليلزم القضاء بقرية ببادية تادلا التي كان سلطانهم عليها<sup>58</sup>.

### رابعاً: قضاء داي

تم تسليم دولة الموحدين قضاء داي للقاضي عياض لسببين رئيسين:

أ- نفيًا له إلى قرية صغيرة مجهولة تفقد أبسط مقومات الحياة.

ب- حفاظًا على منصبه، وذلك خوفًا من مركزه القوي اجتماعيًا وسياسيًا في مدينته.

وُلِّيَ قضاءها في عام واحد وأربعين وخمسمئة للهجرة، ومكث فيها قرابة ثلاث سنوات حتى اعتلّ بالمرض، فكان قضاؤها آخر عهده بالحياة وتوفي بعده<sup>59</sup>.

وللقاضي عياض أبيات من الشعر وهو في طريقه ب داي إلى منفاه فلم يجد غير حمامة من الطير تؤنسه، فصار عياض يناجيها قائلاً<sup>60</sup>:

لعلك مثلي يا حمام فإنني

غريب ب داي قد بليت بـداء

فكم من فلاة بين دايو سبتة

وفرق بصيد الخافقين قـواء

لعل الذي كان التفرق حكمه

سيجمع منا الشمل بعد تناءي

وعلى الرّغم من النهاية الحزينة للقاضي عياض، فقد

تسلسل القضاء في أسرته بعد موته، تولاه أربعة أعلام من هذا البيت، ومن هنا فإن المدرسة العياضية في القضاء استمر نبوغها على يد أبنائه وحفدته.

### المطلب الرابع: السمات العامة في قضاء القاضي عياض

#### أولاً: القضاء محنة وابتلاء

لم يكن تسلم القضاء من الأمور السهلة على العلماء والقضاة المخلصين وإنما هو ثقل المسؤولية من مخاطر الزلل فيها وهذا ما أشار إليه القاضي عياض عند ذكر سبب تأليفه لكتاب الشفا فقال: «... فبادرت إلى نكت سافرة عن وجه الفرض مؤدياً من ذلك الحق المفترض، أختلسها على استعجال، لما المرء بصده من شغل البدن والبال، بما قلده من مقاليد المحنة التي ابتلي بها فكادت تشغل عن كل فرض ونفل، وترد بعد حسن إلى أسفل سفلى»<sup>61</sup>.

#### ثانياً: القضاء مشغل للعلماء

بالرغم من الخير الكثير من مصنفات القاضي عياض إلا أنه يعد نفسه قد انشغل كثيراً بالقضاء، ولم يكن له الفراغ الكافي للتأليف، وقد بين ذلك في الأسباب التي دفعته إلى تأليف الإكمال وإكماله فقال: «... فكثرت الرغبات في تعليق لما مضى من تلك الروايات والتنبيهات يضم نشرها ويجمع، والقواطع عن الإجابة تقطع، وشغل المحنة التي طوقت عنق الإنسان تمنع، أو الرجاء لوقت فراغ ذلك يسوف ويطمع»<sup>62</sup>.

#### ثالثاً: العزلة عن القضاء راحة وهناء

على نهج العلماء الأتقياء، كان القاضي عياض زاهداً في القضاء مستعفياً من مناصبه، ويُعدُّ ذلك من من الله عليه، حسبما كان يقول في الإكمال: «... إلى أن من الله بإحسانه بجل تلك القلادة وزوالها، وفرغ البال من عهودها الفادحة، وأشغالها، فتوجه الأمر، وانقطع العذر»<sup>63</sup>.

#### رابعاً: القضاء ميزان عدل السماء

لما تولى عياض القضاء، أقام الحدود، وأحق الحق، وأبطل



الشافعي إذ يقول: «من ولي القضاء ولم يفتقر فهو سارق»<sup>66</sup>.

### الخاتمة

إن كان لا بد لي في نهاية بحثي أن أجمل أهم النتائج التي توصلت إليها بعد ما تمّ - بفضل الله - إنجازه، وتحقق - بمشيئته - أغراضه، فأقول:

- 1- إن القاضي عياضاً هو أحد مشاهير أعلام الأمة وعلمائها، الذين استفاضت المعرفة بعلمهم، وانتشر الخير بجهودهم.
- 2- نشأ القاضي عياض في بيت علم ودين ووجاهة في بلاد المغرب الإسلامي، وشهد له الناس بأخلاقه الطيبة، وفضائله الحميدة.
- 3- عاصر القاضي عياض دولتين قضى أكثر أيام عمره في الأولى، وشهد جزءاً من الأخرى وهما دولة المرابطين ودولة الموحدين، وكانت له جهود سياسية شارك من خلال صدارته في العلم والنسب، وتقلد في هاتين المدينتين مناصب قضائية مهمة ولأكثر من أربع مرات حتى عُرف بها.
- 4- جمعت نصوصاً متفرقة من أقوال القاضي عياض أثبت فيها سمات منهجه القضائي بصورة عامة، ورؤيته لهذه المهنة الكبيرة، وموقفه منها.

الباطل، فلم يحاب ولم يجامل ولم يخف في الله لومة لائم، فكان دقيق النظر في إثبات الظلم على الظالم ورفعته عن المظلوم فقد جلد الفتح بن خاقان ت. 528 هـ<sup>64</sup> حد شرب الخمر وهو واحد من أصدقائه.

وقد حكى بعض أصحاب الفتح بن خاقان أن الفتح قال بعد أن جلد القاضي عياض: «عزمت على إسقاط اسم أبي الفضل من كتابي الموسوم بقلائد العقيان، قال: فقلت له: لا تفعل، قصتك معه من الجائز أن تنسى، وأنت تريد أن تخلدها مؤرخة، فقال لي: وكيف؟ قلت له: كل من تضعه في كتابك يجدرك ذكرت من هو مثله ودونه في العلم والصيت، فيسأل عن السبب، فيقال له، وتحكى له قصة جلدك، فيتوارث الناس العلم بذلك الأصاغر عن الأكابر»<sup>65</sup>.

### خامساً: القضاء وعيشة الفقراء

لما سلك عياض القضاء اختار معه عيشة الفقراء، فهذا ولده محمد يقول: «ولما طالت مدته يعني أباه في خطة القضاء، أتلّف أكثر ما ورث عن أبيه حتى احتاج إلى بيع بعض ربايعه بمدينة سبتة في ثمن ضيعة اشتراها بخارج مدينة مالقة، ومات - رحمه الله - وعليه دين خمسمئة دينار وصدق الإمام

## الحواشي

(\*) أستاذ أكاديمية الدراسات الإسلامية جامعة ملابيا - ماليزيا.

من بلاد البربر وهي حاضرة البحر وأجل مدنه، انظر: معجم البلدان: 230 / 4.

11. القيروان: مدينة عظيمة بأفريقية غبرت دهرًا وليس بالغرب مدينة أجل منها، وهي مدينة مُصَرَّت في الإسلام وقد اختطها عقبة بن نافع، انظر: معجم البلدان: 420 / 4.

12. انظر: تذكرة الحفاظ: 67 / 4، شذرات الذهب: 138 / 4.

13. انظر: الصلة: 661 / 2.

14. انظر: معجم الأعلام: 596.

15. انظر: اتجاه عياض الفكري بين واقع ومذهب، د. محمد زنيبر، مجلة المناهل، العدد 19 السنة 7: 405.

16. انظر: المصدر نفسه.

17. التعريف: 4.

18. انظر: الجانب الرباني في شخصية عياض: أ. أحمد العدوي، ندوة الإمام مالك دورة القاضي عياض: 2 / 189.

19. قلائد العقيان: 3 / 683-684.

20. انظر: القاضي عياض، عالم المغرب: 182.

21. انظر: المصدر نفسه: 2 / 23.

22. التعريف: 6، 7، 8.

1. انظر: التعريف بالقاضي عياض: 2.
2. التعريف: 2، بغية المتتمس: 572 / 2.
3. انظر: القاضي عياض، عالم المغرب: 33.
4. انظر: المصدر نفسه.
5. انظر: أزهار الرياض: 1 / 23 - 24.
6. تعرف قلعة يحصب في الوقت الحاضر باسم Alcala la Real أي: القلعة الملكية، وهي تابعة في التقسيم الإداري الأسباني لإقليم جيان JAEN انظر: العلامة أبو الفضل عياض كما يراه علماء المشرقيات، د. عبد الله العمراني ندوة الإمام مالك دورة القاضي عياض: 2 / 66.
7. تقع سبتة على مضيق جبل طارق من ناحية المغرب، واختلفوا في سبب تسميتها، فقول من باب سبت النمل إذا قطعها، فهي متقطعة في البحر، وقيل لأن أول من نزلها هو سبت بن يافث بن نوح.
8. انظر: التعريف: 3.
9. بسطة: بالفتح مدينة بالأندلس من أعمال جيان ينسب إليها المصلبات البسطية، انظر: معجم البلدان: 1 / 422.
10. فاس: بالسین المهملة بلفظ فاس التجار، مدينة مشهورة كبيرة على بر المغرب



44. عبد المؤمن بن علي بن مخلوف أبو محمد الكومي ت 558 هـ، مؤسس دولة الموحدين: ينظر: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، لأحمد السلاوي تحقيق: ولدي المؤلف جعفر ومحمد، الدار البيضاء، 1954 م، 1/ 139.
45. تاريخ ابن خلدون المسمى بـ العبر وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون ت. 808 هـ، دار الطباعة العامرة، القاهرة، بولاق، 1284 هـ، 6/ 230.
46. المصدر نفسه: 6/ 235.
47. التعريف: 11 - 12.
48. ينظر: القاضي عياض عالم المغرب: 175.
49. انظر: إنباء الرواة: 2/ 363.
50. انظر: التعريف: 11.
51. انظر: القاضي عياض وجهوده في علمي الحديث: 81.
52. انظر: أزهار الرياض: 3/ 11.
53. المصدر نفسه: 3/ 11.
54. انظر: التعريف: 11.
55. انظر: أنباء الرواة: 2/ 364.
56. إبراهيم بن تاشفين بن علي بن يوسف، اللمتوني الحميري، أمير المسلمين أبو إسحاق، آخر ملوك دولة المرابطين ت 541 هـ، انظر: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية: 100.
57. انظر: الديباج المذهب: 169.
58. انظر: تاريخ ابن خلدون: 6/ 230.
59. انظر: أزهار الرياض: 3/ 333.
60. انظر: التعريف: 98 - 99.
61. الشفا بتعريف حقوق المصطفى: 1/ 3.
62. إكمال المعلم بقوائد مسلم: 1/ 73.
63. المصدر نفسه.
64. الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان أبو نصر ت. 528 هـ، صاحب قلائد العقيان ومطمع الأنفس، انظر: وفيات الأعيان: 1/ 407.
65. التعريف: 112.
66. المصدر السابق: 113.

23. الإلماع: 7 - 8.
24. انظر: التعريف: 112.
25. تذكرة الحفاظ: 4/ 68.
26. انظر: الصلة: 2/ 661، تذكرة الحفاظ: 4/ 69.
27. انظر: معجم الأعلام: 596، ومعجم المؤلفين: 2/ 588.
28. انظر: مفتاح السعادة ومصباح السيادة: 2/ 131.
29. انظر: الديباج المذهب: 171.
30. انظر: تاريخ الأدب العربي: 6/ 266.
31. انظر: وفيات الأعيان: 3/ 426.
32. مراکش بالفتح ثم الكاف وشين معجمة أعظم مدينة بالمغرب وأجلها، وبها سرير ملك بني عبد المؤمن وهي في البر الأعظم بينها وبين البحر عشرة أيام في وسط بلاد البربر، انظر معجم البلدان: 5/ 94.
33. انظر: التعريف: 13، وفيات الأعيان: 3/ 426.
34. انظر: التعريف: 13.
35. انظر: فهرس الفهارس: 2/ 184.
36. وقيل اسمه: عبد الله بن تاشفين، ينظر: وفيات الأعيان: 5/ 485.
37. الكامل في التاريخ، لأبن الأثير، علي بن محمد الشيباني ت 630 هـ، دار صادر، بيروت، ب.ت: 618/9، البيان المغرب في أخبار أهل الأندلس والمغرب، لأبن عذاري المراكشي ت 706 هـ، الدار العربية للكتاب، ط/ 3، 1983 م: 4/ 7، عصر المرابطين الموحدين، لمحمد عبد الله عتار، القاهرة، 1964 م: 1/ 25.
38. ينظر: دولة المرابطين لسلامة محمد سلمان الهرقي، دار الندوة الجديدة، بيروت - لبنان، 1405 هـ - 1985 م: 46.
39. ينظر: العلامة أبو الفضل عياض كما يراه علماء المشرقيات، ندوة الإمام مالك دورة القاضي عياض: 2/ 76.
40. ينظر: التعريف: 11.
41. محمد بن عبد الله بن تومرت البربري أبو عبد الله ت 524 هـ، وفيات الأعيان: 2/ 37.
42. ينظر: الكامل: 10/ 569، البيان المغرب: 4/ 68.
43. ينظر: القاضي عياض عالم المغرب: 23.

## المصادر

- أنباء الرواة على أنباء النحاة، للوزير جمال الدين علي بن يوسف القفطي ت. 646 هـ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب المصرية، ط/ 1، 1371 هـ - 1952 م.
- بغية المتتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، لأحمد بن يحيى الضبي ت. 599 هـ، تحقيق: إبراهيم الأسياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط/ 1، 1417 هـ - 1989 م.
- تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، نقله إلى العربية: د. السيد يعقوب بكر، راجع الترجمة: د. رمضان عبد التواب، دار المعارف، مصر،

- أزهار الرياض في أخبار عياض، لشهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ التلمساني ت. 1041 هـ، تحقيق: مجموعة من الأساتذة، مطبعة فضالة الحميدية - المغرب، 1338 هـ - 1978 م.
- إكمال المعلم بقوائد مسلم، للقاضي عياض ت. 544 هـ، تحقيق: د. يحيى إسماعيل، دار الوفاء، بمصر، ط/ 1، 1419 هـ - 1998 م.
- الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع، للقاضي عياض ت. 544 هـ، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار التراث، القاهرة، ط/ 2، 1398 هـ - 1978 م.



- 1977م - تاريخ ابن خلدون المسمى بـ العبر وديوان المبتدأ والخبر - لابن خلدون ت. 808هـ. دار الطباعة العامة، القاهرة، بولاق، 1284هـ.
- تذكرة الحفاظ، للحافظ شمس الدين الذهبي ت. 748هـ. دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط / 1، 1419هـ - 1998م.
- التعريف بالقاضي عياض، لولده أبي عبد الله محمد ت. 575هـ، تحقيق: د. محمد بن شريفة، ط / المملكة المغربية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ب. ت.
- الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، للسان الدين ابن الخطيب ت. 776هـ. تونس، 1329هـ - 1911م.
- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، للإمام برهان الدين ابن هرون البعمري المالكي ت. 799هـ، مطبعة ابن شقرون، مصر، ط / 1، 1351هـ.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي ت. 1089هـ، مكتبة القدسي، مصر، 1350هـ.
- الشفاء بتعريف حقوق المصطفى، للقاضي عياض ت. 544هـ، تحقيق: حسين عبد الحميد نيل، دار الأرقم، بيروت، لبنان، 1415هـ - 1995م.
- الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وقضاةهم وأديانهم، لأبي القاسم خلف بن عبد الملك بن شكوان ت. 578هـ، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط / 1، 1410هـ - 1989م.
- فهرس الفهارس والاثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، لعبد الحي الكتاني ت. 1962م، تحقيق: إحسان عياض، دار الغرب الإسلامي، ط / 2، 1402هـ.
- القاضي عياض عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته، د. الحسين بن محمد شواط، دار القلم، دمشق، ط / 1، 1419هـ - 1999م.
- القاضي عياض وجهوده في علمي الحديث رواية ودراسة، أ.د. البشير علي حمد الترابي، دار ابن حزم، بيروت - لبنان، ط / 1، 1418هـ - 1997م.
- فلائذ العقيان في محاسن الأعيان، للإمام أبي نصر الفتح بن خاقان ت. 528هـ، تحقيق: د. حسين يوسف خريوش، مكتبة المنار، الأردن، ط / 1، 1409هـ - 1989م.
- معجم الأعلام، بسام عبد الوهاب الحايي، الجفان والجاني للطباعة والنشر، ط / 1، 1407هـ - 1978م.
- معجم البلدان، لياقوت بن عبد الله الحموي ت. 626هـ، دار الفكر، بيروت، ب. ت.
- معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، ط / 1، 1414هـ - 1993م.
- مفتاح السعادة ومصباح السيادة في الموضوعات والعلوم، لأحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبرى زاده، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط / 1، 1405هـ - 1985م.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لأبي العباس أحمد بن خلكان ت. 681هـ، تحقيق: د. يوسف علي طويل و د. مريم قاسم طويل، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط / 1، 1419هـ - 1998م.
- المطبوعات الأخرى:**
- ندوة الإمام مالك دورة القاضي عياض، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مراكش - المغرب، مطبعة فضالة - المحمدية، 1404هـ - 1983م.
- مجلة المناهل، تصدرها وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية، الرباط - المغرب، مطبعة فضالة، المحمدية - المغرب.

## سلسلة المنظومات العلمية في التراث المالكي

من السلاسل العلمية التي يعتزم مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث بالرابطة المحمدية للعلماء إصدارها - بإذن الله -، وتهدف إلى نشر مجموعة من أهم المنظومات العلمية التي تلقاها الناس بالقبول وجمعت بين قوة المضمون وجمال السبك، سواء في علوم القرآن أو الحديث النبوي أو السيرة العطرة أو الفقه...